

عنوان المداخلة: المناهج النقدية بين الاستيعاب والتطبيق.

د/ زلافي ابراهيم

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

## المخلص:

تسعى هذه المداخلة للوقوف على نشأة العمل الروائي في الجزائر، ومدى استيعاب النقاد لحقيقة المناهج النقدية الغربية ومحاولاتهم الرامية إلى تطويعها وتذليل صعوباتها من أجل تطبيقها على العمل الروائي، والبحث في الأسباب التي حالت دون تطور الأدب والنقد في الجزائر.

## توطئة:

مع بداية النهضة الأوربية في القرن السابع عشر الميلادي، تحول نظر العلماء إلى الطبيعة من أجل السيطرة عليها، واعتمدوا في ذلك البحث والتنظير من خلال منهج الملاحظة والتجربة المدعوم بالروح العلمية. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تجتاح العالم، كانت الأمة العربية تعيش حالة الجهل والانحطاط. لقد اعتاد المؤرخون أن يتخذوا من حملة نابليون على مصر (1798) بداية للنهضة العربية، لما كان لهذه الحملة من لفت انتباه العرب إلى رقي أوروبا وتقدمها الحضاري، ويشهد على ذلك " تخليص الإبريز " لرفاعة الطهطاوي. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت بوادر النهضة الثقافية في مصر وسوريا ولبنان، ثم انتقلت إلى البلدان العربية بعد ذلك. ونتيجة لهذا الاحتكاك و الالتقاء تولد وعي وطني يؤمن بضرورة التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، نتج عنه تيارات فكرية وإصلاحية امتهنت الصحافة والترجمة. فنشأت المدارس الأدبية منها المدرسة الإحيائية، و المدرسة الرومانسية، ومدرسة الديوان ومدرسة المجهر، ثم أعقبها ظهور مدارس أخرى جمعيات كجمعية العلماء المسلمين في الجزائر. رافق هذه الحركة الأدبية حركة نقدية استوردت المناهج النقدية الغربية وتنافس أصحابها في ترجمة هذه النظريات من شتى اللغات في حركة متسارعة وجدل قائم، وأوجد فوضى في ترجمة المصطلحات بين أدباء المشرق العربي و مغربه.

## نشأة الرواية

يبدأ عصر الرواية في أوروبا مع بداية العصر الحديث في القرن الثامن عشر الميلادي، أفول عصر الإقطاع وبروز عصر البورجوازية، الذي اهتم بالواقع والمغامرات الفردية، وسجل أدب هذه الفترة الأمور المعبرة عن حياة العصر والفرد، واصطلح على هذا الأدب بالرواية الفنية.<sup>1</sup>

أما في الوطن العربي فيتفق جل الدارسين والنقاد والكتاب العرب على أن مولدها كان مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للميلاد، وأن ميلادها كان نتيجة تأثير الآداب الغربية التي اطلع عليها العرب، إما عبر الترجمة أو من خلال البعثات إلى الدول الغربية، وإن كان بعضهم يرى أن هذا الفن له جذور في الأدب العربي القديم. ويجمع الكتاب العرب على أن رواية " زينب " لمحمد حسين هيكل التي عنونها ب: " مناظر وأخلاق ريفية " بقلم فلاح مصري هي أول رواية واقعية في الأدب العربي الحديث.

### الرواية الجزائرية والمناهج النقدية:

في ظل أوضاع القهر الاستعماري وحصاره الفكري وسعيه لطمس هوية الشعب الجزائري، ومحو شخصيته وتدمير ثقافته، هذه السياسة التي انتهجها الاستعمار، أنتجت بيئة اجتماعية سيطر عليها التخلف والأمية، ولم يسلم منها إلا أتباع الاستعمار. هذا الصراع الغير المتكافئ جعل الأديب يلتزم بقضيته الوطنية ويعبر عنها من خلال القصيدة أو الأقصوصة التي تعبر عن اللمحة العابرة أكثر مما تعبر عن موقف مدروس في أبعاد إيديولوجية وفنية واضحة.<sup>2</sup> وتشير بعض الدراسات إلى أن الإرهاصات الأولى في العمل القصصي بدأت مع نهاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث صور محمد ابن إبراهيم المدعو الأمير مصطفى نتائج الحملة الفرنسية على الجزائر في عمله الأدبي الموسوم ب: " حكاية العشاق في الحب والاشتياق " سنة 1849<sup>3</sup>. ثم بعد مرور ما يقارب القرن من الزمن ظهر عمل أدبي آخر سنة 1947م تحت عنوان: " غادة أم القرى " لأحمد رضا حوحو، رصد فيه معاناة المرأة العربية، و تميز هذا الإنتاج بمستوى فني سليم.<sup>4</sup>

وفي سنة 1951 أنتج عبد المجيد الشافعي عملاً أدبياً تحت عنوان: " الطالب المنكوب " صور فيه حياة طالب جزائري يعيش في تونس، ثم قصة " الحريق " سنة 1957 بتونس لنور الدين بوجدرة، و"رمانه " للطاهر وطار. ويذهب بعض الباحثين الجزائريين إلى أن هذا الإنتاج الأدبي يمثل اللبنة الأولى في بناء صرح الرواية الجزائرية باللغة العربية.<sup>5</sup> بينما يرى بعضهم أن رواية " ريح الجنوب " لعبد الحميد بن هدوقة تمثل النواة الفعلية لميلاد الرواية الجزائرية.<sup>6</sup> وقد اكتسبت الرواية الجزائرية خصوصيتها من شتى التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي شهدتها الجزائر قبل وبعد الاستقلال.

أما الدراسات النقدية فقد غلب عليها الجانب التاريخي من خلال البحث عن نشأة الرواية الجزائرية، وقد اكتسبت المناهج النقدية أهمية بالغة في الدراسات الأدبية، بكونها طرقاً وأساليب يعالج بها الناقد الأعمال الإبداعية ويميز جيدها من رديئها، ولما كان العالم العربي يعيش حالة عدم الاستقرار على مستوى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية بسبب التغيرات والتطورات الحتمية الناتجة عن التطور السريع، وتتابع المناهج الأدبية النقدية وتوافدها تباعاً بدءاً من الانطباقية، التاريخية، الاجتماعية، النفسية، التي تربط النص بسياقه الخارجي، ثم انحسرت هذه المناهج لتأخذ مكانها المناهج النصانية: البنيوية، التفكيكية، الأسلوبية، السيميائية وغيرها، والتي تنظر إلى النص على أنه شكل مستقل قائم بذاته لا علاقة له بما هو خارج عنه. و نتيجة للصراع بين القديم والحديث ظل الناقد العربي في قلق وتوتر بين الحفاظ على الموروث وإجراءات الحداثة الغربية، يتلمس طريقاً يميزه عن غيره.

في خضم هذا الصراع، اعتمد النقاد الجزائريون المناهج السياقية ومن ضمنها المنهج

التاريخي في تتبعهم لنشأة القصة والرواية، و من أبرز هؤلاء نجد:

- واسيني الأعرج في كتابه " اتجاهات الرواية العربية في الجزائر "

- عبد الملك مرتاض في كتابه " فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954) " و "

نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر"، الذي بين فيه نشأة الأدب والعوامل التي أثرت في تطوره ومسايرته للأدب في المشرق العربي، في نظرية الرواية.

- عمر بن قينة في كتابه " في الأدب الجزائري الحديث ( تاريخا، قضايا، أنواعا، وأعلاما... )  
- عبد الله الركبي في كتابه " القصة الجزائرية القصيرة" و " تطور النثر الجزائري" والذي  
تعرض فيه إلى الأشكال الأدبية و تطورها.

- أبو القاسم سعد الله في كتابه " دراسات في الأدب الجزائري الحديث "

- محمد الطمار " تاريخ الأدب الجزائري" تتبع فيه تطور الأدب الجزائري .

وفي الاتجاه الاجتماعي نجد محمد مصايف في " الرواية العربية الجزائرية بين الواقعية  
والالتزام".

في الربع الأخير من القرن الماضي صدر لعبد الملك مرتاض كتابا عنوانه " النص الأدبي  
من أين؟ و إلى أين ؟ كان فاتحة للمناهج النقدية.

### الأسباب التي حالت دون تطور الأدب و النقد:

كان التضيق والحصار الذي فرضه الاستعمار قبل وأثناء الثورة سببا تقليص إبداعات  
الأدباء والنقاد في الجزائر، وعلى الرغم من ذلك تحملوا مسؤولياتهم اتجاه الوطن والشعب،  
وأفادوا من البيئة الأدبية العربية، كما استفادوا من الآداب الأوربية الوافدة.

ويذهب رضا حوحو إلى أن الأسباب التي جعلت الأدباء لا يقبلون على الإنتاج  
الأدبي كونهم لم يجدوا الميدان الصالح للنطق، ولا صدق لصيحاتهم، ولا تربة خصبة لبذورهم،

فالجو أخرس تنقصه التجارب... والمطابع مفقودة في الجزائر ، والأدباء فقراء...<sup>7</sup>

هناك أسباب أخرى ساهمت في كبح عجلة تطور الدراسات النقدية تمثلت في غياب القدرة  
على فهم وإدراك كنه المناهج النقدية.

نجد بعض النقاد العرب يعترفون بعدم إدراكهم لكنه المناهج النقدية الغربية فهذا  
فاضل ثامر الذي يقولها علنا بأنه لم يكن يعي شيئا عن المنهج في فترة الستينيات: « لم أكن  
أمتلك إلا فهما أوليا لمعنى المنهج في النقد على الرغم من أنني كنت أزعم لنفسي وللآخرين  
بأنني كنت أمتلك فهما واضحا وعريضا لمعنى المنهج، و كنت آخذ على النقاد أو بعضهم  
مسألة غياب المنهج النقدي الواضح، لكنني أشعر الآن وأنا أضع نفسي على كرسي الاعتراف

الذاتي، بأني شخصياً، وهذا بالتأكيد ينطبق على زملائي الآخرين، لم أكن أدرك إلا فهما محدوداً لمعنى المنهج»<sup>8</sup>

لا تكفي المعرفة باللغتين لتتم ترجمة النصوص أو المناهج من لغة إلى أخرى، فالعمل يقتضي في كثير من الأحيان بالإضافة إلى الزاد الأدبي أن يكون المترجم مؤرخاً أو عالماً في صنف من العلوم الطبيعية، الرياضيات، الفيزياء...

فلو تفحصنا أقوال رواد المنهج التاريخي في الغرب لتبين لنا أن هؤلاء لم يكونوا أدباء أو نقاد فقط بل كانوا رواداً في علوم أخرى. كان لديهم توجه علمي تجريبي في منهج دراستهم للأدب. فنجد "سانت بوف" (1804 - 1869) و " هيبوليت تين " (1828 - 1893) و "برونتيير" (1849-1906) ممن سعوا إلى إيجاد قوانين ثابتة للأدب، ثبات قوانين العلوم الطبيعية، قوانين تطبق على كل الأدباء، كما تطبق قوانين الطبيعة على كل عناصر المادة وجزئياتها .

فهذا ش.أ. سانت بيف (1804-1869) / (Charle Augustin Sainte-Beuve) ، الناقد الفرنسي الذي تأثر بالمنهج العلمية، وكان له الدور الهام في إرساء قواعد المنهج التاريخي، و الذي تمحورت أبحاثه الأدبية حول شخصية الأديب، يدعو إلى تطبيق قوانين علم النبات على تاريخ الأدب، حيث يرى أن الأدباء " كفضائل النبات والحيوان، فصائل تتشكل حسب ما يقع عليها من مؤثرات خارجية، أو ما تحمل من صفات وخصائص. بحيث يتسنى للباحث الأدبي تصنيف الأدباء إلى مجموعات متجانسة تتميز بطابع عام مشترك<sup>9</sup>.

ومن بعده هيبوليت تين (1828-1893) Hippolyte Adolphe Taine، الفيلسوف والمؤرخ والناقد الفرنسي الشهير كان من الأوائل الذين استخدموا المنهج التاريخي لدراسة الأدب وتعمقوا في دراسته. ويرجع ذلك إلى انبهاره بقوانين العلوم الطبيعية. إذ كان يرى أن الإنسان ينتج الأدب والأشعار والفلسفات بطريقة طبيعية تشبه تماماً دودة القز في إفرازها لخيوط الحرير. وقال بتأثير ثلاثية (الجنس، البيئة، العصر) في إنتاج الأدب<sup>10</sup>.

أما فردينان برونيتيار (1849-1906) Ferdinand Brunetiere ، الناقد الفرنسي فقد طبق نظرية (التطور) لدى داروين (1809-1906) على الأدب ، معتبرا الأنواع الأدبية مثل الكائنات العضوية. وعلى شاكلة كتاب (أصل الأنواع) لداروين ، ألف برونيتيار كتابه (تطور الأنواع الأدبية) سنة 1890 ، حيث رأى أن الآداب تنقسم إلى فصائل أدبية مثلها مثل الكائنات الحية ، وأنها تنمو وتتكاثر متطورة من البساطة إلى التركيب في أزمنة متعاقبة حتى تصل إلى مرتبة من النضج قد تنتهي عندها وتتلاشى وتقرض كما انقرضت بعض الفصائل الحيوانية<sup>11</sup>.

وهنا نطرح السؤال :كيف يمكن لهؤلاء النقاد أن يدعوا إلى تطبيق قوانين علم النبات على الأدب لو لم يكن لهم علم بعلم الطبيعة و الحياة ؟

- إن تعطيل العقل العربي وإقناعه باستحالة البحث دون وسيط غربي لإجراء عملية النقد لأمر يدعو إلى التساؤل: هل العلم حكرا على أحد دون الآخر؟ أقول كلا فالعلم ليس حكرا على أحد.إن الإنسان في الوطن العربي وخاصة في الجزائر إذا توفرت لديه الروح العلمية استطاع التغلب على صعوبة البداية وحمل راية المنافسة وتطوير بل وخلق طرائق واضحة المعالم لدراسة النصوص تتماشى والبيئة التي ولد فيها النص الأدبي.مع عدم التقصير في تعليم طلاب العلم لهذه المناهج ، و إدراكهم لأهميتها في بناء النهضة العلمية والأدبية.

فأين تكمن المشكلة إذا؟ هل هي في العلم ؟ أقول لا بل في غياب الروح العلمية.

- إن التهافت على استيراد المناهج الغربية جاهزة وتطبيقها على النصوص العربية دون مناقشاتها وتطويرها ظلنا من البعض أنها قوالب غير مرنة لا يمكن التغير في شكلها. والمعروف أنها منظومة من المفاهيم التي تتطلب من متبنيها الوعي والجهد والقدرة على فحصها وتحليلها بأدواته الخاصة ثم إعادة إنتاجها وبلورتها وفق البيئة الجديدة.إلا أن جهل بعض النقاد بماهية هذه المناهج وبأصولها الفكرية والفلسفية جعلهم في واد والأعمال الأدبية في واد وجمهور القراء في واد آخر.

- لقد خلق غياب مؤسسة علمية تشرف على الترجمة و خاصة ترجمة المصطلحات، فوضى في المصطلح ، وهذا الفراغ فتح المجال أمام الجهود الفردية مما أدى إلى الاختلاف في الترجمة والخلط والعشوائية والغموض والاضطراب والضعف،نتج عنه تباين في طرق إيصال الأفكار إلى القارئ العربي،وهذه الإشكالية وإن كانت وجدت عند النقاد الغربيين إلا أنها فاقت الحدود عند النقاد العرب.

وقد أشار عبد العزيز حمودة إلى خطورة نقل المصطلح دون مراعاة خصائص البيئة التي نشأ فيها والبيئة التي نقل إليها وهذا بقوله : « حينما ننقل نحن الحدائين العرب المصطلح النقديّ الجديد في عزلة عن خلفيته الفكرية والفلسفية فإنّه يفرغ دلالاته ويفقد القدرة على أن يحدد معنى، فإذا نقلناه بعواقبه الفلسفية أدى إلى الفوضى والاضطراب، إذ إنّ القيم المعرفية القادمة مع المصطلح تختلف بل تتعارض أحيانا مع القيم المعرفية التي طورها الفكر العربيّ »<sup>12</sup> .

فنجد مثلا لمصطلح:

- écart : ما يزيد عن العشر ترجمات باللغة العربية منها: الانزياح، الانحراف،العدول، البعد،التباعد،التجاوز،الشذوذ...

- "sémiotique" sémiologie : السيميائية،السيميائية،السيميولوجيا ،السيميوطيقا ، علم العلامات،علم الرموز،السماتية...

- عجز بعض النقاد العرب وعدم قدرتهم على تطويع المناهج النقدية الغربية الحديثة أثناء الممارسة التطبيقية وفق منظور نقدي عربي يتماشى وانتماء وهوية النص العربي.و في هذا الصدد يقول عبد الملك مرتاض: « نجتهد أثناء الممارسة التطبيقية أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي الذي ننجزه شيئا من الشرعية الإبداعية،و شيئا من الدفاء الذاتي... »<sup>13</sup>

- هناك آثار نقدية لا تصلح أن تكون مراجعا يرجع إليها في النقد بسبب تباعد اتجاهات النقاد واختلاف مناهجهم وثقافتهم ومبادئهم ومثلهم.<sup>14</sup> فمن كانت ثقافته عربية خالصة لا

يرضى إلا بالأدب الذي يحاكي أدب القدماء ويرى فيه ثمرة معرفته، ومن غلبت عليه الثقافة الغربية لا يستحسن إلا ما نقل عن الغرب. وفي ظل هذا الصراع بين التراث والحداثة، أدرك بعض النقاد ومنهم عبد الملك مرتاض خطورة وشر هذا الصراع، حيث يرى أن الشر في كلى الصنفين: الاتباعي المقلد للتراث والمحدث المقلد للثقافة الغربية<sup>15</sup>، فحاول التوفيق بين الجانبين من خلال الإفادة منهما معا، وهذا ما تكشفه كتاباته ودراساته فإذ تحدث عن التراث تحدث عن الحداثة.

هكذا، وانطلاقا مما سبق، يستشف الدارس أثر الدرس النقدي استيعابا وتطبيقا ودوره في نمو الحركة الروائية وتطورها في الجزائر، وهذا بفعل الجهود التي بذلها النقاد الجزائريون على الرغم من العوائق التي اعترضت مسيرتهم الأدبية.

#### الهوامش:

- 1- عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، دار المعارف، مصر، د ت، ص 193.
- 2 - محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية و الالتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 7.
- 3- صالح مفقودة، المرأة في الرواية الجزائرية، ط 2003، 1، ص 50.
- 4 - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، (تاريخا و قضايا، أنواعا و أعلاما)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 179.
- 5 - صالح مفقودة، أبحاث في الرواية العربية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري، كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة بسكرة، د ت، ص 20. ينظر: واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 17-18. عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 191.
- 6 - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، (تاريخا وقضايا، أنواعا وأعلاما)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 196.
- 7 - عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 64.
- 8 - مرشد الزبيدي، اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 49. (شهادة شخصية لفاضل ثامر قدمت لمرشد الزبيدي)
- 9- يوسف خليف، مناهج البحث الأدبي، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1997، ص 35.

- 
- 10 - فائق مصطفى و عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث (منطلقات و تطبيقات، دار الكتب للطباعة و النشر، الموصل، ط1، 1989، ص170.
- 11 - يوسف خليف، مناهج البحث الأدبي، ص ص36-37.
- 12 - عبد العزيز حمودة ، المرايا المقعرة (من البنيوية إلى التفكيك )، د.ط، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 55.
- 13- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجليبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2001، ص19.
- 14 - بدوى أحمد طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، ط1986، 3، ص28.
- 15- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة و ليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص11.